…جية إسرائيلية جديدة تفشل

تموز 2012) وبالقدر الأقل من الخسائر المدنية والعسكرية. بهذا المعنى، فإن «المعركة بين الحروب» تهدف إلى تثبيت «قاعدتي نشاط الجيش الإسرائيلي في فترات «اللاحرب»: تعزيز الأمن الجاري من جهة، والإبقاء على ارتفاع الجهوزية الاستخبارية والتفوق العملاني من جهة أخرى (معراخوت، تشرين أول 2012)، ودائماً بما يخدم في تحقيق غاية فرعية أخرى هي تعزيز منسوب الردع الإسرائيلي ولو على قاعدة مراكمة النقاط، وليس الضربة القاضية.

وليس بعيداً عن النقطة المتقدمة، برزت مقاربة في الجيش الإسرائيلي تُقسّم «المعركة بين الحروب» إلى ثلاث وظائف (إسرائيل اليوم، 2013/8/13): وظيفة «المنع» لتعاظم قدرات العدو؛ وظيفة التشويش على أنشطة العدو بما يربك تخطيطه لشن عمليات ضد إسرائيل؛ ووظيفة «الردع» التي من شأنها أن تعزز حضور السطوة والتهديد الإسرائيليين في وعي الأعداء.

على أن الضابطة الأهم في النشاط العملاني لـ«المعركة بين الحروب» هي أن يكون محكوماً، قدر الإمكان، بمنطق «البصمة الخافتة» في الأداء والممارسة، فلا يقود إلى تفجير الأوضاع والذهاب بها إلى حرب كبيرة. ربطاً بذلك، يقتضي المبدأ الأول لإدارة «المعركة بين الحروب» الحرص على أن تبقى هذه المعركة في «المنطقة الرمادية، التي تحدث فيها الأشياء بسرية ومباغتة ومن دون تحمل مسؤوليات» (إسرائيل اليوم، 2013/8/13). والغاية المتوخاة من وراء التشديد على عامل الضبابية في التنفيذ لا يتمثل فقط في «التشويش حول هدف العملية والمسؤولين عنها، وإنما أيضاً السماح للعدو بالبقاء ضمن «مجال الإنكار» الذي يعفيه من إحراج الرد جراء تعرض هيبته أو سيادته للخرق، وبذلك تضبط الضبابية خطر التصعيد» (هآرتس، 2013/8/10).

على الصعيد البنيوي، وبحسب ما نُشر في الصحافة الإسرائيلية، بادر الجيش الإسرائيلي إلى خطوات إجرائية من شأنها إكساء «المعركة بين الحروب» بُعداً تنظيمياً داخل المؤسسة العسكرية. من ضمن هذه الخطوات ما ذكرته «هآرتس» (30-6-2013) حول أن رئيس الأركان السابق، بيني غانتس، ألقى على قائد سلاح الجو، أمير إيشيل، مهمة قيادة «المعركة بين الحروب»، «بسبب التميز المتنوع للذراع الجوية القادرة على التحرك بمرونة من ساحة قتال إلى أخرى وعلى الهجوم والتصوير والقيادة والتغطية على قطع بحرية». ويمكن المرء أن يفترض أن وحدات النخبة على اختلاف أنواعها، لها دور بارز في خوض هذه المعركة وراء خطوط العدو، وكذلك الحال بالنسبة لسلاح البحرية الذي يتمحور نشاطه حول اعتراض عمليات تهريب الأسلحة في البحرين الأحمر والمتوسط.

> «المعركة بين الحروب» تعويضٌ عن الردع الإسرائيلي المتراجع منذ ما بعد عدوان تموز

«المعركة بين الحروب» هي، إذاً، بحسب التصور النظري، فرضية عمل مترابطة تهدف إلى تأطير النشاط العسكري والأمني لإسرائيل خلال فترة اللاحرب. لكن من حيث الوقع هي ليست أكثر من إطار مفهومي يراد من خلاله إعطاء «قيمة مضافة» استراتيجية للأنشطة العسكرية والأمنية المتفرقة التي تنفذها إسرائيل. وتتمثل هذه القيمة المضافة بالمفعول الجمعي والتراكمي لهذه الأنشطة الذي يفترض به أن يُترجم بأربعة عناوين هي، بحسب غانتس (معاريف، 2013/10/18): «منع وردع وتأجيل والاستعداد» للحرب المقبلة.

والمقصود بالمنع هنا هو إحباط المخططات العدائية ضد إسرائيل، فيما الردع هو ردع «الأعداء» عن التفكير بهكذا مخططات أو تنفيذها، والتأجيل هو تأجيل الحرب المقبلة على أن يكون الاستعداد قائماً على قدم وساق. وبهذا المعنى، فإن «المعركة بين الحروب» هي في الواقع نوعٌ من الحرب الوقائية المتواصلة التي تديرها إسرائيل بالارتكاز إلى جملة عوامل، أهمها: أولاً، حالة الغموض التي تحيط بها الهجماتِ المُنَفَّذة بما يتيح للجهة المستهدَفة «هامش إنكار» يساعدها في التعامل الاحتوائي مع هذه الهجمات؛ وثانياً، حسن الاستفادة من الظروف السياسية الخاصة بالخصوم بما يضمن إلى حد كبير الرهان على أرجحية عدم مبادرتهم إلى الرد على الاعتداءات الإسرائيلية.

والمفارقة في هذه الحرب الوقائية المتواصلة التي تشنها إسرائيل هي أنها تشكل تعويضاً عن الردع الإسرائيلي المتراجع منذ ما بعد عدوان تموز 2006 برغم أنها تزعم ترميمه. فالحرص الإسرائيلي على الابتعاد عن واجهة المسؤولية في معظم العمليات المندرجة تحت عنوان «المعركة بين الحروب»، كما الحرص على تحيّن ظروفٍ مُقيِّدة للخصوم لتنفيذ هذه العمليات، يدلّان على أن تل أبيب أقل ثقة برادعيتها حيال ردود فعل الخصوم وأكثر تعويلاً على انكباحهم الذاتي بفعل أوضاعهم والأولويات الخاصة بهم. إذ ليس من قبيل الصدفة أن لا تتجرأ إسرائيل على استهداف ما تقول إنها قدرات استراتيجية للمقاومة في سوريا قبل اندلاع الحرب هناك.

وأيا يكن، فإن إسرائيل تدير حربها هذه وهي تعلم أن فائدتها محدودة الصلاحية، وهذا ما صرّح به كبار القادة الإسرائيليين على المنابر، حين أقروا بأن حزب الله بات يمتلك أنواعاً مختلفة من الأسلحة الاستراتيجية الكاسرة للتوازن، هي نفسها التي يُفترض بـ«المعركة بين الحروب» أن تحبط حيازته لها.

> كسر نصر الله المعادلة التي حاول العدو فرضها بشنّ اعتداءات من دون أثمان مؤلمة

الأثمان التي يمكن أن تترتب على ذلك، ما دام سقفها «مزارع شبعا». ينطوي هذا النوع من الحسابات على أرجحية ما لإقدام إسرائيل على شنّ اعتداءات جديدة في الساحة اللبنانية (وارتقاء في الاعتداءات في الساحة السورية)، ما دامت الأثمان المقدرة ستبقى ضمن سقف ما شهدناه حتى الآن. وأي نجاح للعدو في فرض معادلة كهذه يعني أن لبنان سيتحول إلى ساحة اعتداءات مدروسة ومفتوحة تستهدف ما تراه إسرائيل أولويات ملحّة. ودائماً استناداً إلى تقدير مفاده أن مصلحة حزب الله وجمهوره تكمن في تجنب فتح جبهة جديدة مع إسرائيل.

نتيجة ذلك، بات يمكن القول إننا إزاء مرحلتين: مرحلة سابقة حققت فيها ردود حزب الله في مزارع شبعا أهدافها عبر تجنيب لبنان اعتداءات عسكرية إسرائيلية مباشرة. ومرحلة جديدة تتطلب مستوى جديداً من الردع.

في هذه المحطة – المنعطف، أتى إعلان السيد نصر الله، بالرد ـ على أي عملية قتل لأي من كوادر أو مجاهدي حزب الله ـ بشكل مباشر وقاسٍ وخارج مزارع شبعا. إضافة إلى ما سبقه من مواقف ورسائل حازمة في الأسابيع الماضية.

ماذا بعد تعديل «قواعد الاشتباك»؟

المؤكد أن التزام السيد نصر الله العلني بالرد المباشر والقاسي وخارج مزارع شبعا ألغى إمكانية الرد المسقوف من دائرة الاحتمالات التي يفترض أنها حاضرة على طاولة القرار السياسي والأمني في تل أبيب. ونتيجة ذلك، باتت قيادة العدو تدرك أن أي تجاوز للخطوط التي رسمها حزب الله، يعني أنها ستتلقى رداً مؤلماً تستوجب منها، منذ الآن، تحديد ما هي خياراتها العملانية على قاعدة خطوتين إلى ثلاث خطوات إلى الأمام.

في ضوء ذلك، باتت إسرائيل أمام مروحة خيارات، بعيداً عن ترجيح أي منها:

1 ـ الامتناع عن أصل الاعتداء الذي يستوجب الرد الذي التزمه حزب الله.

2 ـ المبادرة إلى الاعتداء وتلقي الرد الذي توعد به الحزب ثم الانكفاء.

3 ـ المبادرة إلى الاعتداء والرد على الرد.

في السيناريو الأول، يكون العدو قد امتنع عن أي مغامرة عسكرية، ويكون حزب الله قد حقق هدفه الردعي.

في السيناريو الثاني، يكون العدو قد ارتدع في نهاية المطاف، لكن بعد اختبار جدية حزب الله عملياً. ويكون الحزب قد حقق هدفه الردعي مع تضحيات ما وثمن مؤلم للعدو.

أما في السيناريو الثالث، فيكون العدو أمام خيار التدحرج نحو مواجهة أوسع. لكنه أقدم على الاعتداء الابتدائي، مع علمه بأن ذلك سيؤدي إلى مواجهة واسعة. وعلى ذلك، نكون أمام قرار استراتيجي اتخذه العدو بالعدوان، بدلاً من أن يكون متقطعاً وبدون أثمان مؤلمة، كما كان يخطط لتوسيع دائرة الاعتداءات. ويكون حزب الله قد استطاع أن يقلب المعادلة ويحولها إلى عدوان مكلف جداً للعدو، وفق وتيرة مرتبطة بمنسوب الاعتداءات واتساعها، وبما يؤدي إلى تعزيز قدرة ردع الحزب الذي يحمي لبنان والمقاومة.

في ضوء كل هذه السيناريوهات، يكون حزب الله قد استطاع أن يحطم القوالب والمفاهيم التي بدا أنها متغلغلة في وعي قادة العدو السياسيين والعسكريين، وأعاد خلط الأوراق على طاولة صانع القرار في تل أبيب، وأربك حسابات الكلفة والجدوى لديه. والنتيجة الطبيعية لذلك، كسر المعادلة التي كان يحاول العدو فرضها على لبنان وحزب الله، عبر شنّ اعتداءات متقطعة دون أثمان مؤلمة.

معركة بأشكال متعددة

يمكن القول إن العمليات التي تتألف منها «المعركة بين الحروب» تأخذ أشكالاً متنوعة انطلاقاً من أهدافها التكتيكية المختلفة. فهي تتوزع، مثالاً لا حصراً، بين: عمليات الجمع الاستخباري وراء الحدود، عمليات «الإحباط المركز»، وهو المصطلح المعتمد إسرائيلياً لتصفية قادة وكوادر لدى العدو بأساليب عسكرية مباشرة (سمير القنطار نموذجاً)، عمليات الاغتيال ذات الطابع الأمني في عمق أراضي العدو (عماد مغنية وحسان اللقيس)، إجهاض مسار مراكمة القدرات العسكرية لدى الأعداء سواء من خلال اعتراض عمليات تهريب الأسلحة (سفينة فكتوريا 2011/3/15) أو استهدافها وتدميرها في الطريق أو داخل أماكن تخزينها (الغارات التي نُفذت داخل الأراضي السورية في الأعوام الثلاثة الماضية، والتي أقر بها نتنياهو مؤخراً)؛ تدمير برامج تطوير قدرات غير تقليدية لدى الأعداء قبل نضوجها، أو عرقلتها بالوسائل العسكرية والأمنية (مفاعل دير الزور، واغتيال العلماء النوويين الإيرانيين).